أسامة بن منقذ الكناني
وقصة مخطوطة كتابه «المنازل والديار»

الأستاذ عيسى فتوح

كنت أظنّ فيما مضى أن الشاعر والفارس أسامة بن منقذ الكناني (٤٨٩- ٥٨٤ هـ ، ١٠٩٥- ١١٨٨م) لم يؤلف إلا كتاب «الاعتبار»، الذي حققه المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حتي، إلى أن اطّلعت على قصة اكتشاف المستشرق الروسي كراتشكوفسكي مخطوطة كتابه الآخر «المنازل والديار» عام ١٩١٨ في روسيّا، بعد أن نقلها إلى هناك السيّد «روسو» قنصل سويسرة في حلب، ثم قام بعد ذلك بتحقيقها ونشرها.

وبعد ذلك بزمن طويل، في عام ١٩٧٥، أعدّ الدكتور وهيب طنوس أطروحة دكتوراه في الأدب العربي ، تناول فيها حياة أسامة بن منقذ وشعره وأدبه بأسلوب موضوعي علمي، معتمداً أوثق المصادر التاريخية العربية والأجنبية، وقد وضع لأطروحته عنواناً هو «الوطن في الشعر العربي»، مستنداً إلى كتاب (المنازل والديار) بالدرجة الأولى[1].

لقد درس الدكتور طنوس مؤلفات أسامة بن منقذ الكناني، ومنها كتاب (المنازل والديار)، الذي يقع في / ٢٥٠/ ورقة، تضمها مخطوطة وحيدة للكتاب، فريدة في العالم، ومحفوظة في معهد الدراسات الشرقية، فرع لينغراد سابقاً (سانت

بترسبورغ حالياً)، والكتاب مؤلف من ستة عشر فصلاً، وفي كل فصل أشعار وقطع نثرية تدور حول المعنى الذي ينطوي عليه عنوان الفصل.

وقد استعرض الدكتور وهيب طنوس موضوعات هذا الكتاب، فأشار إلى أنه حافل بمجموعة كبيرة من الأشعار التي تتسم بالحزن والحنين وذكر النوائب والفراق والبكاء على الأطلال والديار، في حين أن المقطوعات النثرية فيه قليلة. وبيّن أن الدافع لتأليف الكتاب كان دافعاً خاصاً ذاتياً يرمي إلى مواساة نفس المؤلف، والترويح عنها، بعد أن أصابه ألم ممضّ، وحزن قاهر، في أعقاب مأساة أليمة حلّت بأهله، فأتت عليهم جميعاً، بعد زلزال مدمّر أصاب قلعة شيزر، قرب حماة على نهر العاصي، حيث كانوا يقيمون. لقد كان الكتاب صدى لمأساة أسامة بن منقذ وترجيعاً لمشاعره الحزينة، فضلاً عن أن المؤلف عمد فيه إلى الاستطراد، فتناول موضوعات ثانوية متنوعة ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي للكتاب، وذلك طلباً للتنوع والتسلية وعدم إرهاق القارئ وإملاله.

كما بيّن الدكتور طنوس أن قيمة هذا الكتاب تكمن في كونه أثراً أدبياً من آثار القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري)، وهذا ماجعله مرجعاً هاماً من مراجع دراسة الأدب في ذلك القرن، فهو يعبّر عن روح ذلك العصر، كما يعبّر عن شخصية أسامة بن منقذ.

وأشار إلى أن أهمية الكتاب تنبع من أنه يتضمن مادة غزيرة تتميز بطريقة ترتيبها، فهي تصلح لأن تكون أساساً لدراسة الموضوعات الأدبية في الشعر العربي، فقد احتوى الكتاب على نحو من خمسة آلاف بيت من الشعر العربي، بعضها لم يرد في دواوين أصحابها. وقد كان اختيارها ينمّ عن ذوق أدبي رفيع، وإحساس نقدي مرهف، فالكتاب بذلك يتشابه مع المجموعات الشعرية المشهورة في الأدب العربي كالحماسة والأمالي(٢).

أما قصة العثور على هذا المخطوط الثمين، الذي كتبه أسامة بن منقذ بخط يده،

فيرويها كراتشكوفسكي (١٨٨٢– ١٩٥١) في كتابه (مع المخطوطات العربية)، ويذكر فيه الفرحة الغامرة التي تملكته حينذاك، فيقول إنه في نهاية القرن السابع عشر وصل من جنيف إلى سورية شخص يدعى «روسو»، وهو ينحدر من أسرة الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو، التي ذاع صيتها فيما بعد، فعاش فيها حياة أفضل من حياته في وطنه، وقد استطاع أن يجمع بعض الثروة. وعشية الثورة الفرنسية كان ابنه قنصلاً لحكومته في حلب وبغداد، وكان حفيده قد ترعرع في الشرق بثقافته الفرنسية، وأتقن العربية والفارسية والتركية، واقتفى خطوات أبيه فغدا تاجراً ووكيلاً قنصلياً، وأقام في حلب – التي كانت آنذاك مركزاً ثقافياً مهماً– مدّة طويلة، فتطوّر ذوقه الأدبي، ونشأ لديه ميل إلى جمع المخطوطات، فتكوّنت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة من المخطوطات اختيرت بمهارة وعناية.

ويبدو أن ظروفه المادّية قد ساءت ففكر عام ١٨١٥م أن يبيع هذا الكتاب مع مجموعة الكتب التي اشتراها، فعرضها باديء ذي بدء على الحكومة الفرنسية، لكنها رفضت شراءها، بسبب ارتفاع ثمنها، والعجز الذي وقعت فيه ميزانية فرنسا بعد حروب نابليون، ولما سمع بها المستشرق الفرنسي سلفستردي ساسي[٣]، نقل الخبر إلى صديقه وزير التعليم الشعبي في روسيا السيد أوفاروف، فرحب بشرائها، واشتراها على دفعتين، الأولى عام ١٨١٩، والثانية عام ١٨٢٥، وهكذا خسرت فرنسا هذه المجموعة الثمينة، وظفرت بها روسيا، التي جعلتها نواة لمجموعات المتحف الآسيوي العالمية.

ثم يتحدث كراتشكوفسكي مطولاً عن أهمية مخطوطات روسو التي نقلها من حلب إلى بطرسبرغ، والتي باعها إلى قيصر روسيا، ومنها مخطوطة «المنازل والديار»، التي عثر عليها ضمن هذه المجموعة، فيقول:

«حين أسس مكسيم غوركي داراً لنشر الآداب العالمية، وتمكّن المجمع الاستشراقي من توحيد جميع المستشرقين في عمل جذّاب ذي برنامج واسع لأول

مرة، أعد برنامج واسع للكتب العربية التي يلزم ترجمتها، ومنها كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، ذلك الفارس الصياد الذي عاش إبّان حروب الفرنجة. أما كتابه «المنازل والديار» فلم يقف عنده أحد من المستشرقين، باستثناء «فرين»، الذي أشار إليه إشارة خاطفة. أما المستشرق الفرنسي «ديرانبورغ»، الذي قضى نصف حياته تقريباً في دراسة مؤلفات أسامة بن منقذ، فلم يعرف شيئاً عن هذه المخطوطة ، التي كتبها مؤلفها بخط يده، وهو في السابعة والسبعين من عمره»[٤].

كيف عثر على المخطوطة

يصف كراتشكوفسكي النشوة العارمة التي اجتاحته حين اكتحلت عيناه برؤية تلك المخطوطة النادرة المخزونة في المتحف الآسيوي، ويروي كيف ارتعشت يداه وتملكه الرعب ، فيقول: «لقد ارتعشت يداي، وتملكني الرعب حين فتحت هذا المجلد، فقد فكرت ، على الرغم من التشكك، أنني سأرى حقاً في داخل هذا المجلد سطوراً كتبت عن حياة صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد بيد معاصرهما الشريف، صديق الأول وعدو الثاني»[٥].

فتح كراتشكوفسكي المخطوط ذا الجلد الأسود، ونظر في نهايته وبدايته بعطش شديد، وكم كانت خيبته كبيرة، فقد ظهر ناقصاً في بدايته. نهايته غير موجودة، وبدايته كتابتها معادة في فترة متأخرة جداً عن كتابة الجزء الأساسي، وهي مكتوبة بخط آخر وعلى أوراق جديدة.

ويصرّح أسامة بن منقذ بأنه ألّف كتابه «المنازل والديار» في أواخر حياته حين كان في السابعة والسبعين من عمره، وقد ملأه برثاء أهله، الذين قضى عليهم زلزال دهم «شيزر» في عام ٥٥٢هـ (شهر آب عام ١١٥٧م)، فهدّ أركانها ودمرها تدميراً، وقضى على أهلها، فلم يبق من بني منقذ أحد ممن كانوا فيها، ونجا أسامة وولده لبعدهما عنها، فيقول: «دعاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادي وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جرّ عليها ذيله، وصرف إلى تصفيتها حوله وحيله (...) فقد دثر

عمرانها، وهلك سكانها، فعادت مغانيها رسوماً، والمسرات بها حسرات وهموماً، ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل ماأصابها (...) فما عرفت داري، ولا دور والدي وإخوتي، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبهتّ متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه، وانتزاع ماخوّله من نعمائه... وقد عظمت الرزيّة حتى غاضت بوادر الدموع وتتابعت الزفرات»(٦).

لم يؤلف أسامة بن منقذ كتاب «المنازل والديار» إثر الزلزال الذي دمر قلعة شيزر، بل انتظر خمسة عشر عاماً حتى هدأت نفسه واستقرت مشاعره، فشرع في تأليفه بعد أن بلغ من الكبر عتياً، وارتاح من خوض المعارك، وممارسة هواية الصيد والقنص .

لقد أتاحت له الحياة المستقرّة التي عاشها في حصن «كيفا» (المطلّ على نهر دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر ضيفاً على الأمير فخر الدين) أن يؤلف عدداً كبيراً من الكتب. وقد أحصى له المؤرخون مايقرب من أربعين كتاباً في الشعر والبلاغة والتاريخ وغير ذلك. وأهم هذه الكتب كتاب «المنازل والديار»، الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من الأشعار والمقطوعات النثرية، التي يحكي فيها رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة، أو حقيقة غامضة، وجمع فيها أشعاراً من العصر الجاهلي حتى أيامه، وكلها تعزف أنغام الحزن لفراق الأحبّة والديار، والحنين إلى الوطن المهجور، فهو صدى لتراجيديا أوترجيع لمشاعره المؤلمة الحزينة .

لقد بكى أسامة بن منقذ في كتاب المنازل والديار أهله وبلدته «شيزر» بقصائد عامرة بالمشاعر الإنسانية كقوله في إحداها:

حمائمَ الأيك هيّجتُنَّ أشجانا ... فلْيبكِ أصدقُنا بثّاً وأشجانا
قالوا: تأسَّ وقالوا: بمن؟ وإذا ... أُفردت بالرزء ماأنفكُّ أسوانا

استدعى صلاح الدين الأيوبي أسامة بن منقذ إلى دمشق عام ٥٧٠ هـ

(١١٧٤م). وكان «مرهف» بن أسامة من جلسائه، فلعله طلب منه أن يستدعي أباه من معتكفه في حصن كيفا، ففعل، فرعاه صلاح الدين رعاية كريمة وقرّبه وأغدق عليه، وأقطعه ضيعة في أطراف المعرّة وأملاكاً في دمشق، وأخذ يستشيره في أمره، ويكتب إليه بأخباره، حين كان يخرج لقتال الفرنجة، وظل يعيش في دمشق، ويلقي بعض الدروس في مدارسها، ويغشى مجالسها العلمية، إلى أن حصلت جفوة بينه وبين صلاح الدين، فانطوى على نفسه وظل كذلك إلى أن وافته المنيّة عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨م)، ودفن في سفح جبل قاسيون على جانب نهر يزيد الشمالي، وكان قبره معروفاً إلى أيام ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان[٧].

ويذكر كراتشكوفسكي أن أسامة بن منقذ حمل معه إلى دمشق من حصن «كيفا» مكتبة كبيرة، كما فعل حين رحل من مصر إلى سورية، غير أن تلك المكتبة التي حملها من مصر غرقت مع باقي أشيائه في البحر، وقد ترك غرق مكتبته جرحاً في قلبه لم يندمل حتى آخر حياته. أما كتابه «المنازل والديار» فكان من جملة الكتب التي حملها معه من حصن كيفا.

الهوامش

١ – بشير فنصة، مجلة «الإخاء» الإيرانية رقم ٥٢٦ لعام ١٩٧٨.

٢ – الدكتور وهيب طنوس: الوطن في الشعر العربي، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب ١٩٧٩– ١٩٨٠.

٣ – سلفستر دي ساسي مستشرق فرنسي (١٧٥٨– ١٨٣٨) أنشأ الجمعية الآسيوية الفرنسية، وبثّ في قلوب معاصريه الغيرة على الدروس الشرقية، ولا سيما العربية. له مؤلفات عديدة في الشؤون الشرقية.

٤ – مع المخطوطات العربية لكراتشكوفسكي، منشورات دار التقدّم بموسكو، صفحة ١٥٥.

٥ – المصدر السابق، ص ١٦٦.

٦ – المصدر السابق، صفحة ١٦٩.

٧ – مقدمة المختار من كتاب «الاعتبار»، د. عبد الكريم الأشتر، وزارة الثقافة ١٩٨٠، صفحة ٦ و ٧.